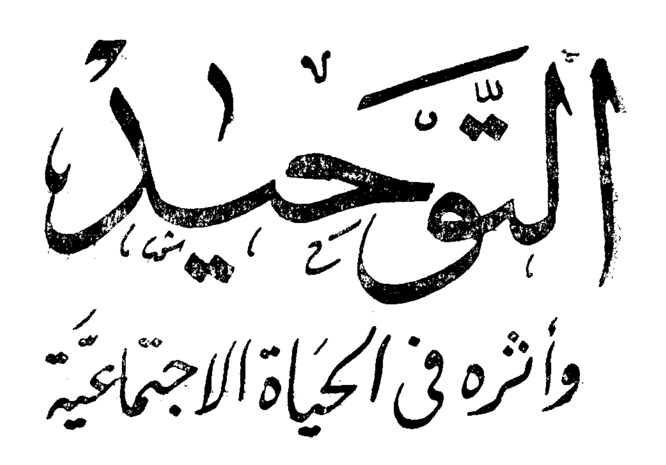


التوحيد وأثره فى الحياة الاجتماعية

بقلم
الدكتور أبو سريع محمد أبو سريع
مدرس التفسير وعلوم القرآن

المقدمـــة :

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

والصلاة والسلام على خير البشرية ، وصفوة الإنسانية ، محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فإن قضية التوحيد ، لها خطرها ولأنها من بداية الحياة حتى منتهاها ، فعلى أساسه قامت الأكوان بأمر خالقها ، واتسعت الموازين استجابة لأمر ربها ، فلولاه ما كانت الحياة ولا الأحياء ؛ لذا عنى الأنبياء والمرسلون ، ومن بعدهم العلماء المحققون بأمر التوحيد ، اعتقاداً وعملا ، فكراً وتطبيقاً ، ودعوة ومنهاجا للسالكين . .

وكان مما دار بخلدى ، وراود الفؤاد حتى تعلق به ، أن أكتب فى الموضوع

سطوراً تذكر الناس بمجدهم - مع ربهم - التليد ، فيعودوا إلى العز الذى لا يبلى ، والشرف الذى لا يفنى .

وقد ضمنت هذا البحث نقاطاً متعددة ، كان من أهمها :

١ - دعائم التوحيد .

٢ - مفهوم التوحيد كما يصوره الإسلام .

٣ - الحكمة الإلهية فى خلق الخلائق .

٤ - قيام التوحيد على العقيدة الصحيحة .

٥ - الآثار السيئة الناجمة عن تنكب طريق التوحيد .

٦ - الآثار الحسنة التى تركتها عقيدة التوحيد فى سلفنا الصالح .

٧ - توصيات البحث .

٨ - الخاتمـــة .

والله العلى العظيم - أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كما نفع بأصوله .

د . أبو سريع محمد أبو سريع

دعائم التوحيد

إذا أردنا أن نعرف الدعائم التى يرتكز عليها التوحيد ، حتى يكون صحيحاً فى القلوب ، لا تعبث به الأهواء ، ولا يخالطه شك أو ارتياب ، فإنه يحسن أن نعرف أولا : معنى التوحيد ، وما يجب أن يكون عليه العبد تجاه الرب اعتقاداً وعملا .

ثم نعرف ثانياً : مقدار ثمرة الامتثال .

يقول صاحب معارج القبول[1] .

التوحيد نوعان :

الأول : التوحيد العلمى الخبرى الاعتقادى ، المتضمن إثبات صفات الكمال لله ـ عز وجل ـ وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل ، وتنزيهه عن صفات النقص ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات .

والثانى : التوحيد الطلبى القصدى الإرادى ، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وتجريد محبته والإخلاص له ، وخوفه ورجاؤه ، والتوكل عليه ، والرضا به ، رباً وإلهاً ووليا ، وأن لا يجعل له عدلا فى شىء من الأشياء ، وهو توحيد الإلهية . ا هـ .

والتوحيد فطرة الله التى فطر الناس عليها .

يقول ـ عز وجل ـ

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها)[2] وهو البغية الأولى التى بعث الأنبياء والرسل جميعاً من أجلها .

---

(١) معارج القبول ٤٦/١ .

(٢) سورة الروم بعض الآية / ٣٠ .

يقول الله تعالى :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[1] .

والتوحيد ثلث القرآن ، لأن علوم القرآن ثلاثة : التوحيد والأحكام والقصص .

وثمرته العبادة التى ذرأ الله - سبحانه - الخلق لها .

يقول - عز من قائل -

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[2] .

ومن المعلوم أن حقيقة الإسلام وجوهره هى : الانقياد والخضوع لكائن أعلى وموجود أسمى - وهو الله جل جلاله - يراقب حركاته ، ويبصر سكناته ، ويعلم اتجاهاته .

فإذا اعتقد الإنسان بوحدانية الله حقاً ، وسار على نهجها فى حياته ، ووطد لها بعد مماته ، وآمن إيماناً راسخاً بأن لا موجود سوى الله ، وأن كل ما عداه إنما هو فقير فى نفسه مفتقر إلى غيره ، وقصد الله فى كل مطلب ، واتقى غضبه ، وابتغى رضاه ، برىء من كل غاشية أو شائبة ، وتحرر من الرهبة وهى نصف الحياة ، وتخلص من الرغبة وهى النصف الآخر ، وعاش الإنسان سعيداً فى دنياه ، راضيا بأخراه ، وأى صبابة[3] للإنسان بعد هذا ؟

يقول الله تعالى :

(فأينما تولوا فثم وجه الله)[4] .

---

(١) سورة الأنبياء / ٢٥ .

(٢) سورة الذاريات / ٥٦ .

(٣) الصبابة : الشوق .

(٤) سورة البقرة بعض الآية ١١٥ .

يقول الطبرى فى تفسيره[1] :

وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب ؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية ، إلا كان ثناؤه - فى ذلك الوجه وتلك الناحية ، لأن له تعالى المشارق والمغارب ، وأنه لا يخلو منه مكان ، كما قال تعالى :

(ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا)[2] .

وروى عن ابن جرير عن مجاهد[3] قال : لما نزلت : (ادعونى أستجب لكم)[4] .

قالوا : إلى أين ؟ فنزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله) .

ويقول الطباطبائى[5] : (فثم وجه الله) فيه وضع علة الحكم فى الجزاء موضع الجزاء والتقدير : - والله أعلم - فأينما تولوا جاز لكم ذلك ، فإن وجه الله هناك ، ويدل على هذا التقدير تعليل الحكم بقوله تعالى : (إن الله واسع عليم) أى : إن الله واسع الملك والإحاطة ، عليم بقصودكم أينما توجهت . ا هـ .

فإذا وثب الإنسان إلى هـذه الدرجة ، حظى بعزيمة قوية ، وصبر فى مواجهة الأحداث ، واستطاع أن ينزع الأمن من بين براثن الخوف ، وأن يدفع عجلة الحياة لصالح الحق والخير ، فيعيش آمنا فى سربه ، معافا فى بدنه ، مطمئناً على ماله وولده ، وذلك ما يصبو إليه كل عاقل ، وتلك غاية

---

(١) تفسير الطبرى ٥٠٢/١ .

(٢) سورة المجادلة بعض الآية : ٧

(٣) تفسير الطبرى ٥٠٥/١ .

(٤) سورة غافر : بعض الآية : ٦٠ .

(٥) الميزان فى تفسير القرآن ٢٥٩/١ .

تخلق من الإنسان إنسانا ، كما أراده الله - عز وجل - فهو فى حياته لله ، وفى عبادته ، وفى مماته لله .

يقول الله تعالى :

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[1] .

يقول الرازى[2] .

وهذا يدل على أنه لا يكفى فى العبادات أن يؤتى بها كيف كانت ، بل يجب أن يؤتى بها مع تمام الإخلاص .

ويقول الشهيد سيد قطب[3] :

إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة فى القلب ، وبكل حركة فى الحياة ، بالصلاة والاعتكاف ، وبالمحيا والممات ، بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه ، إنها تسبيحة التوحيد المطلق والعبودية الكاملة . ا هـ .

لقد كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد حيث تبقى ماثلة فى الوجدان ، راسخة فى الأعماق ، تستمد من العمل قوة وثباتا ، ونضرة وإشراقا ، ويستمد العمل منها سهولة ويسراً ، وحبا وشوقا ، فيتكاملان تكامل الجسد بالروح ، وبهذا يكون الله - عز وجل - ملاذ الإنسان وسنده ، يعينه فى شدته ، وينصره فى كفاحه ، ويمده بعونه ورعايته فى احتياجه .

يقول الرسول - ﷺ - احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ،

---

(١) سورة الأنعام الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) التفسير الكبير للرازى ١٢/١٤ .

(٣) ظلال القرآن ١٢٤٠/٣ .

تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ؛ وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك بشىء قد كتبه الله عليك ؛ رفعت الأقلام وجفت الصحف[1] .

وهذه هى الحقيقة التى عنى القرآن بإرسائها وتقريرها منذ فجر النبوة ومهد الإسلام .

يقول الله تعالى :

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[2] .

يقول ابن كثير[3] :

بين تعالى أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود على جميع ما يصدر عنهم من خير ، لأنه هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم ، ولهذا قال : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أى ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، أى بل هو الذى أظفركم عليهم ؛ كما قال : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)[4] وقال تعالى :

(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين)[5] .

---

(١) المستدرك ٣ / ٥٤١ .
(٢) سورة الأنفال بعض الآية ١٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٧٠ .
(٤) سورة آل عمران بعض الآية / ١٢٣ .
(٥) سورة التوبة/ ٢٥ .

يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة[1] والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى، كما قال.

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)[2].

ثم قال لنبيه - ﷺ - أيضاً فى شأن القبضة من التراب التى حصب بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها وقال: شاهت الوجوه، ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة أثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).

أى هو الذى بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها، لا أنت، ثم ذكر أثراً فى تفسير ابن جرير الطبرى عن ابن عباس قال: رفع رسول الله - ﷺ - يديه - يعنى يوم بدر - فقال: يا رب، إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد فى الأرض أبداً، فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

ويقول القرطبي[3]:

روى أن أصحاب رسول الله - ﷺ - لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل، قتلت كذا، فعلت كذا، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك، فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء،

---

(١) اللأمة: الدرع والسلاح.

(٢) سورة البقرة / ٢٤٩.

(٣) تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٢٠.

وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده . . . ثم قال : فقيل المعنى : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم .

وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم . ا هـ .

إن الإسلام وهو يؤسس صرح هذه الأمة ، سن لها قانونا عدلا ، ووضع لها دستوراً محكماً : لا تفاضل ولا تمايز إلا بالتقوى والعمل الصالح فكان ذلك سبيلا لإقامة العدل والمساواة بين الناس على أهدى طريقة وأقوم سبيل ، حيث لا فرق بين غنى وفقير ، ولا بين عربى وعجمى ، ولا بين قوى وضعيف ، ولا بين أحمر وأسود ، إلا بالتقوى والعمل الصالح .

عن أبي ذر — رضى الله عنه — قال : إن النبي - ﷺ - قال له :

انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى[1] .

ولذا كان هذا سبباً فى سعة الدولة الإسلامية بصورة لم ولن يسبق لها مثيل أو نظير .

ولقد عاش المسلمون تحت ظل هذه الدولة إخوة ، بكل ما تعنيه هذه اللفظة من الأمان ، والتعاون ، والتحاب ، والتحالف ، والترابط والتماسك ، كالبنيان المرصوص .

والإنسان مجبول على طلب الفضل عن غيره ، وألف الميزة عمن سواه ، وسلك - بحسب وهمه الباطل - غايات يتوجه إليها ويتباهى بها ، كالشرف ، والكرامة ، والعزة ، والجاه ، والسلطان ، والنسب ، والحسب ، والمال ، والجمال ، والصيت .

وبذل بكل سخاء جهده ووقته ، بغية الوصول إلى أقصى حد ، والعثور على أكبر قدر ، وظن أن هذا هو الفضل الحقيقى ، وغاب عنه أن هذه

---

(١) المسند ٥ / ١٥٨ .

الأشياء كلها، لا ميزان لها عند الله - سبحانه - بمفردها ؛ ونسى أو تناسى أنه مهما قوى جاهه واشتد ؛ وعز سلطانه وامتد ، وكرم نسبه وحسبه ، وكثر ماله وناء بحمله، وزاع صيته وانتشر ، فلن يصل إلى ميزة حقيقية ، ولا لفضل محمود عاقبته ؛ لأن الفضل الحقيقى يكون بسعادة الدنيا والآخرة .

يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - كرم الدنيا الغنى ، وكرم الآخرة التقوى .

وهو بهذا قد وجد شيئاً وضاع منه شيء ، بل لقد ضاع منه كل شيء حينما رضى بالحياة الدنيا من الآخرة .

وكم سمعنا ورأينا من كان بالأمس ملكا عزيزاً ، وأصبح عبداً ذليلا فتبرأ منه الأصدقاء قبل الأعداء .

يقول الله تعالى :

(أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون)[1] .

وذكر النووى[2] عن الرازى قال : سمعت أن بعض الشرفاء فى بلاد خراسان كان فى النسب أقرب الناس إلى على - رضى الله عنه - غير أنه كان فاسقاً ، وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل ؛ ومال الناس إلى التبرك به ؛ فاتفق أنه خرج يوماً من بيته يقصد المسجد ، فاتبعه خلق ، فلقيه الشريف سكران ، وكان الناس يطاردون الشريف ، ويبعدونه عن طريقه ، فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال له : يا أسود الحوافز والشوافر ، يا كافر ابن كافر

---

(١) سورة القصص بعض الآية / ٧٨ .

(٢) تفسير النووى ٢/ ٣١٦ .

أنا ابن رسول الله أذل ، وتجل ، وأذم وتكرم ، وأهان وتعان ، فهم الناس بضربه ، فقال الشيخ : لا ، هذا محتمل منه لجده ، وضربه معدود بحده ، ولكن يا أيها الشريف ، بيضت باطني وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبي فوافق سواد وجهي فحسنت ، وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبي ، فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي ، فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي ، فعملوا معك ما يعمل مع أبي ، وعملوا معي ما يعمل مع أبيك .

ويقول الرسول ﷺ : من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله .

وفي هذا يقول الله تعالى :

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)[1] .

يقول ابن كثير[2] :

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهي طاعة الله ، ومتابعة رسوله ﷺ ... ثم قال : أي إنما يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالإحساب .

وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ ثم ذكر مارواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنهما - قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا : نعم ، قال : فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا[3] .

(١) سورة الحجرات الآية / ١٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٦٥ .

(٣) البخاري كتاب الأنبياء باب (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) .

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال : رسول الله ﷺ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[1] .

من سيرة الرسول ﷺ :

والمتتبع لسيرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ـ يجد أنه قد انطبعت نفسه لإرساء هذا التشريع السماوى قولا وفعلا .

فحينما آخى بين المهاجرين والأنصار ، جعل عمه حمزة ومولاه زيداً أخوين ، وجعل خالد بن رويحة الخثعمى وبلال بن رباح الحبشى أخوين .

وزوج ابنة عمته ـ زينب بنت جحش الأسدية من زيد بن حارثة مولاه ، وخطب ﷺ بنفسه لجليبيب ـ وهو رجل من الموالى ـ فتاة من الأنصار ، فلما تأبى أبواها قالت الفتاة : أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه ، فرضيا وزوجاها .

ولما خطب بلال بنت البكير ، أبى إخوتها ، فقال بلال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من بنى البكير ! خطبت إليهم أختهم ، فمنعونى وآذونى ، فغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال ، فبلغهم الخبر ، فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك ؟

فقالت أختهم : أمرى بيد رسول الله ﷺ فزوجوها .

ويقول القرطبي[2] .

وفى الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتيبة بن ربيعة ـ وكان ممن شهد بدراً مع النبي ﷺ ـ تبنى سالماً ، وأنكحه هنداً بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهو مولى لامرأة من الأنصار وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد

---

(١) مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله .

(٢) تفسير القرطبي ٧ / ٦١٦٧ .

ابن الأسود ... ثم يقول القرطبي ؛ وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال ... ثم يقول : وقد خطب سلمان إلى أبي بكر ابنته فأجابه ، وخطب إلى عمر ابنته فالتوى عليه ، ثم سأله أن ينكحها ، فلم يفعل سلمان .

وقال النبي ﷺ لبني بياضة : أنكحوا أبا هند ، وأنكحوا إليه ـ وهو مولى بني بياضة ، فقالوا لرسول الله ﷺ نزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله تعالى :

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وقد ذكر النووي هذا مناسبة لنزول الآية[1] .

ولما تحدث المسلمون عن العربية والفارسية ، وفيهم سلمان الفارسي ، وختم النبي ﷺ على أفواه المتكلمين بقوله : سلمان منا أهل البيت ، وكأنه يقول : إن كنتم تظنون أنه أدون منكم درجة لكونه فارسيا ، فقد أخطأتم ، لأنه بتقواه قد صار من خاصة المسلمين فضلا عن عامتهم .

ولما أفلت لسان أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ وقال لبلال بن رباح الحبشي ـ يا ابن السوداء ، غضب رسول الله ﷺ ـ وقال : يا أبا ذر ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل .

ولم يقتصر الأمر على حد المعاملة بين المسلمين ، بل تعدى إلى منصب الإمرة في الغزوات والقيادة في الحروب .

ففي غزوة مؤتة ، جعل زيد بن حارثة ، الأمير الأول ، يليه جعفر بن أبي طالب ، ثم عبد الله بن رواحة الأنصاري ، على ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار .

وأمر أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم يضم كثرة من المهاجرين والأنصار وكبار الصحابة .

---

(١) تفسير النووي ٢/٣١٦ .

وقد تململ بعض الناس من إمرة أسامة - وهو حدث - فقال النبي ﷺ إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، أن كان لخليقاً للإمارة، وأن كان لمن أحب الناس إلي، وأن هذا لمن أحب الناس إلي.

من سيرة السلف الصالح - رضوان الله عليهم :

رفع الرسول ﷺ ولم يكن قد تم بعد خروج أسامة لغزو الروم، وتولى الخلافة أبو بكر - رضي الله عنهما - فما كان منه إلا أن بعث أسامة على رأس الجيش الذي أعده النبي ﷺ وسار أبو بكر - رضي الله عنه - بنفسه يودعه إلى خارج المدينة، أسامة - الحدث - راكب، وأبو بكر الخليفة - راجل - فيستحي أسامة أن يركب والخليفة الشيخ يمشي، فيقول أسامة : يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأنزلن، فيقسم الخليفة، والله لا تنزل، والله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، ثم يرى أبو بكر - بعد أن تحمل عبء الخلافة الثقيل أنه في حاجة إلى عمر - رضي الله عنهما - ولكن عمر إنما هو جندي في جيش أسامة فلا بد من استئذانه فيه، فإذا بالخليفة يقول لأسامة : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل.

ويلحق أبو بكر - رضي الله عنه - بالرفيق الأعلى ويتولى الخلافة عمر - رضي الله عنه - فإذا به يولي عمار بن ياسر على الكوفة.

ويقف على باب عمر، سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام، وأبو سفيان ابن حرب، وجماعة من كبراء قريش، فيأذن قبلهم لصهيب وبلال، لماذا ؟ لأنهما من السابقين إلى الإسلام، ومن أهل بدر، فيقول أبو سفيان : لم أر كاليوم قط ! يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه فيقول عمر : أيها القوم، إني والله أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم، دعي

القوم إلى الإسلام ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم .

ويفرض لأسامة بن زيد أكبر مما يفرض لعبد الله ابنه ، حتى إذا سأله عبد الله عن سر ذلك قال : يا بنى ، كان زيد أحب إلى رسول الله ﷺ - من أبيك - وكان أسامة - رضى الله عنه - أحب إلى رسول الله ﷺ منك ، فآثرت حب رسول الله ﷺ على حبى . وعمر هو الذى قال : لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته ، يقول ذلك وهو لم يستخلف - عثمان - ولا طلحة ، ولا الزبير ، ولا على - وإنما جعل الأمر فى الستة بعده ، ولم يعين واحداً بذاته .

أنعم بهم من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه !

إن الانحرافات التى أصابت الأمم السابقة ، وأودت بحياتهم ، وجعلت لهم لسان خزى وعار فى الآخرين ، نشأت أول ما نشأت عن انطماس حقيقة التوحيد الخالص فى قلوبهم .

وما ساد الإسلام فى فجره وضحاه ، إلا يوم أن كانت حقيقة التوحيد فى القلوب براقة وضاءة ، بها وضع العربى الجلف الجاف قدمه على إيوان كسرى ، ومنها ألقى بعرش قيصر عرض الحائط ، وما كانت نسبة المسلمين وقتها فى العدد والعدة ، بأكثر من نسبتهم اليوم تجاه الشرق والغرب ، ولكنه التوحيد الخالص .

إنه التوحيد الخالص الذى جعل من ذرات التراب يوم بدر قنابل هيدروجينية تذهب بالأبصار وتلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .

والعالم اليوم بما فيه من إلحاد وكفر ، ومذاهب وديانات سطرها الأولون ،

قد وقفوا صفا واحداً ، يصوبون إلى الإسلام والمسلمين سهامهم ، ويدبرون له مكايدهم ، ويحفرون الخنادق لأهله وأتباعه، والمسلمون فى صفوف متباعدة، وآراء متضاربة ، وأموال متناثرة ، « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون » !

ومما يثير الدهشة ويدعو إلى الحيرة ، أننا نرى الخلاف ينشأ بين طائفتين من الكفار ، فما هى إلا ساعة من نهار ، حتى يقف العالم بأسره ، ويقسم على عدم التعود ، إلا أن يمحى الخلاف ويزال الشقاق ، وترى القسم مبروراً ، والخلاف محولا ، ألم تر معى مشكلة فوكلاند بين بريطانيا والأرجنتين .

بينما يدب الخلاف بين فئتين من المؤمنين اقتتلوا ، فلا يحرك ساكناً ، ولا يسكن متحركا ، ويظل سنين عددا وما مشكلة لبنان ، وإيران والعراق عنا ببعيد .

وإذا كان المسلمون فى فترة من فترات التاريخ قد نابهم شيء من الضعف بما دبر لهم أعداؤهم فى الداخل والخارج ، حتى تداعت القيم ، وفترت الهمم ، واهتز البنيان الذى كان شامخاً - فهذه سنه الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا أو تحويلا حيث يقول :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)(١) .

وحال الأمة الإسلامية اليوم فى أمس الحاجة إلى الرجوع إلى الله والتمسك بكتابه المجيد ، وسنة نبيه الكريم ، والسير على هدى السلف الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين .

نسأل الله - سبحانه - من فضله ورحمته - أن يجمع المسلمين على كلمة

(١) سورة هود الآية : ١١٧ .

سواء ، وأن يصلح فساد قلوبهم ، وأن يسدد خطاهم على طريق الحق والرشاد .

كما نسأله - جل جلاله - أن يقيض لهذه الأمة من يعيد بناءها كما كان ، حتى تكون الأمم أمة ، والكلام كلمة ، والضعف قوة، والذلة عزاً ، والهزيمة نصراً ، والخوف أمناً .

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ٭ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما)[1] .

د/ أبو عبد الله أبو سريع بن محمد

---

(١) سورة النساء : ١٧٤ ، ١٧٥ .

أهم المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ جامع البيان لابن جرير الطبرى .

٣ ـ الميزان فى تفسير القرآن .

٤ ـ التفسير الكبير للفخر الرازى .

٥ ـ فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب .

٦ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

٧ ـ الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى .

٨ ـ تفسير النووى .

٩ ـ صحيح البخارى .

١٠ ـ صحيح مسلم .

١١ ـ المستدرك على الصحيحين للحاكم .

١٢ ـ المسند للإمام أحمد .

١٣ ـ جوهرة التوحيد لشيخ الإسلام إبرهيم البيجورى .

١٤ ـ معارج القبول .

١٥ ـ العقيدة فى ضوء القرآن الكريم للدكتور صلاح عبد العليم .

١٦ ـ الاقتصاد فى الاعتقاد لأبى حامد الغزالى .

١٧ ـ إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى .

١٨ ـ لسان العرب .

١٩ ـ عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى .

٢٠ ـ فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى .

٢١ ـ السيرة النبوية لابن كثير .